الجامعة فى ربع قرن

الاستاذ محمد محمد على

تحتفل جامعة فؤاد الأول بمرور ربع قرن على مولدها الرسمى السعيد . وربع قرن أمد بعيد فى عمر الأفراد ، ولكنه ليس كذلك فى حياة الجامعات فقد احتفلت جامعة مونبلييه بعيدها الألفى ولماذا نذهب بعيداً وأمامنا الأزهر الشريف؟

وليس من شك فى أن الجامعة عنوان تقدم المجتمع ، وأن أثرها بعيد فى إعداد الشباب لخدمة الوطن والمساهمة فى حل مشكلاته والتحمس لإصلاحه

وقد اتخذت الجامعة لها مقرا على الضفة الغربية للنيل . وفى ذلك — كما رأى الدكتور زكى مبارك — رمز لما تسمو إليه من نقل عقل الغرب إلى روح الشرق

أنشئت الجامعة « الأميرية » فى عام ١٩٢٥ بلا أهداف واضحة ومن غير رسالة محددة . وهنا يواجهنا أستاذنا الدكتور عباس عمار بتلك الحقيقة المرة ؛ وهى أن النظام الجامعى يبدو أنه فرض علينا فرضا ، فلم يأت كما حدث فى كثير من بلدان العالم الغربى نتيجة تطور طبيعى ، وما دعت إليه وقتئذ حاجة ماسة . « وليس أدل على ذلك من غموض النص على اختصاص الجامعة فى اللائحة التأسيسية لها . فمن اختصاصها مهمة تشجيع البحوث العلمية والعمل على ترقية الآداب والعلوم فى البلاد

ذلك أن النظام الجامعى — ككل نظام اجتماعى — لكى يؤتى أكله ويستسيغه الأفراد ، لا بد أن يعبر عن الاتجاهات الحديثة التى يتجه إليها المجتمع . ، وأن ينسجم مع النظم الاجتماعية الأخرى ويتفق مع وجهة المجتمع . ولقد أثار الأستاذ الكبير فريد بك أبو حديد مشكلة على جانب كبير من الأهمية (١) ، وهى : هل كان نشر التعليم حقا هو العامل على نهضة الأمم فى الماضى ؟ وهل كان تطور التعليم فى البلاد هو الباعث على تقدم البلاد، أم أن تطوره كان نتيجة تطور الحياة فى المجتمع

وانتهى الأستاذ فى بحثه إلى أن تطور الحياة فى المجتمع هو الباعث على نشر التعليم . بيد أنه إذا كان الكثير من مظاهر نهضتنا الحديثة لم يكن نتيجة تطور طبيعى ، فإن التعرض لهذه الناحية فيه زعزعة لأركان هذه النهضة . فهل كان ينبغى أن نعيش بمعزل عن التيارات العالمية ونتخلف عن الركب ؟ إننا لا نستطيع، فالعالم وحدة متشابكة المصالح معقدة الروابط . والرأى السليم هو أن يوفق أولو الأمر بين الجامعة (الجديدة) وبين ما تتطلبه الحياة المصرية ، وألا يغفلوا عن مكانة الجامعة فى المجتمع ، وما تؤديه من رسالة خطيرة

حلت كليات الجامعة محل المدارس العليا القديمة وسارت فى عملها ومع ذلك فقد ظهرت لها مآثر جليلة وآثار عظيمة . وقد كان فى مقدمة ما قامت به من جلائل الأعمال هو إيقاظ الوعى القومى وشحذ العزائم والهمم . كما كانت الجامعة — ولا تزال — مبعث النور والعرفان ، ومصدر أصوات الحرية والاستقلال ، فحملت ألوية الجهاد فى سبيل مصر العزيزة ، ولم تبخل فى كفاحها فروت أرض الوطن بدماء الشهداء الأبرار من أبنائها الأطهار

وما ينبغى أن ينكر الباحث صولات الجامعة وجولاتها فى النهضة الأدبية والعلمية والفنية ؛ إذ ازدهرت الدراسات العليا فى مختلف النواحى والشؤون ، فلم تعد مصر تعيش عالة على ما تجود به الحضارة الغربية بل نبغ من بين جدران الجامعة من يزرا رجال الغرب ونافسوهم ؛ فئة تعتز بهم الجامعة وتفخر ، ويكفى أن نذكر اسم العالم الأشهر (المرحوم) مشرفة باشا ، والوزير الأديب طه حسين باشا ، والبروفيسير الأثرى سليمان حزين ، والأنثروبولوجى الاجتماعى عباس عمار ، لتخر أشهر الجامعات ساجدة تشيد بفضل صاحبة أقدم حضارة نقلت العالم من الظلمات إلى النور، ونعترف بأنه يصعب علينا أن نخرج أمثال هؤلاء الرجال ...

ومما نؤخذ على الجامعة خروجها من عزلتها ، فظهرت ثمار

« . . ولولا أن شعره مشهور مذكور لأوردت منه المعجب المطرب . . »

ولكن الشاعر منذ سافر إلى أوربا فى عام ١٩١٤ لم نر له ولا بيتا واحدا . فقد هجر القريض هجرا تاما . ونسى الناس هذا الشاعر الموهوب ، بل ربما يكون هو نفسه قد نسى شعره

محمد سير كيلانى

(١) راجع صحيفة التربية — السنة الأولى .

النشاط الشعبي للجامعيين والجامعيات في إقبال الطبقات المختلفة على طلب العلم ، وفي نشر الآداب وتبسيط العلوم والفنون . ولعل من أروع ماصحب الجامعة من ظاهرات: ظاهرتين خطيرتين هما : اختلاط الجنسين وما نتج عنه من تدعيم أركان النهضة النسائية ، ثم تطور الصحافة وتنوير الرأي العام

أما اختلاط الجنسين فإن كلية الآداب قد سبقت الكليات في إباحته ، وذلك بحكم أن دراساتها من أكثر الدراسات الجامعية ملاءمة للفتيات ...

والاختلاط قد يرضى عنه قوم ويسخط عليه آخرون . وفي الواقع إن الاختلاط — كأي ظاهرة اجتماعية — له فوائد ومضار. ولم يكن في الإمكان تفادي حدوثه تلبية لدعوى المحافظين ، ما دمنا قد وافقنا على أنه ليس في استطاعة أمة أن تعيش بمعزل عن العالم ، بل لابد من التأثير والتأثر . فمن مزايا الاختلاط أنه يقلل من « خشونة » الجنس الخشن (إن جاز أن نكون كذلك) ثم أهم من ذلك وهو الحد من سيطرة الغريزة الجنسية وتخفيف وطأتها عند كل من الجنسين . وقد دلت الأبحاث النفسية على أن الجنسية المثلية Homosexuality عند الجنسين ، وكراهية المرأة misogynism عند الذكور ، وكثيراً من الأمراض النفسية والعصبية سببها الحيلولة دون اختلاط الجنسين ووقوف كل منهما بمنأى عن الآخر . ونجد أحيانا أن الاختلاط يهدف إلى أغراض شريفة أو ينتهي الأمر بإقامة دعائم الأسرة . . ومهما قيل عن الاختلاط فإن الجامعة ليست هي المكان الوحيد الذي يسمح بالاختلاط ، ثم إن ظروفها قلما تساعد على التفكير في الفساد ... على أن الاختلاط لا يخلو من مضار ، لا مندوحة عن تلافيها أول الأمر كما قدمنا . . وينبغي أن نعترف بوجودها

وقد كان فتح الجامعة أبوابها للفتيات عاملا هاما في تدعيم أركان النهضة النسائية والعناية بتعليم الفتاة ، وانتشال المرأة المصرية مما كانت تغط فيه من جهالة جهلاء وضلالة عمياء ... حتى رأينا المصرية المتعلمة تشغل مناصب الدولة الرفيعة وتنسل إلى « الدرجة الأولى » ، وتخوض غمار الحياة الاجتماعية والسياسية وتؤلف أحزابا ثلاثة : بنت النيل والحزب النسائي والاتحاد النسائي، إلى جانب الجمعيات والمنظمات النسائية

أما الصحافة فإنا نسجل لكلية الآداب مأثرة كبيرة ، إذ أفادت صاحبة الجلالة فائدة عظيمة ، وغذتها بغذاء دسم سمين ، بإنشائها معهد التحرير والترجمة والصحافة . فظهرت آثار ذلك في تنوير الرأي العام وإيقاظ الوعي القومي . وقد خطت الصحافة خطوة واسعة في خدمة الوطن وتعددت أنواعها

ومما هو جدير بالذكر ظهور الصحافة النسائية كعامل فعال في النهضة الحديثة

ويمكن إرجاع ظهور هذه الصحافة إلى عام ١٨٩٢ حين أصدرت « هند بنت نوفل » صحيفة « الفتاة » (١) على أن الجامعة هي صاحبة الفضل في نصرتها ونموها ، وهنا ينبغي أن نشيد بجهود الدكتورة درية شفيق في هذا الميدان

بيد أن الجامعة — مع قيامها بهذه الجلائل من الأعمال — فإنها قد أخفقت في تأدية رسالات كثيرة ، وفي هذا الإخفاق مآخذ يحق لأبنائها أن يأخذوها عليها

فلم تنجح الجامعة في تعميم الدراسة باللغة العربية في جميع الكليات ، وما كان لها أن تتغافل عن هذا العمل ونحن في مستهل نهضتنا القومية

ثم مسألة الصلة بين الجامعة والخريجين ، وهي أروع مظاهر الحياة الجامعية لم تعمل الجامعة شيئاً في هذا الاتجاه ، واقتصرت على الصلة بينها وبين طلبتها . بل إنه أحيانا نجد الصلة بين الأستاذ والطالب لا تتعدى ساعة المحاضرة لكن لا ينبغي أن نفكر ما في قسم الجغرافيا بكلية الآداب من نظم الحياة الجامعية الحقة ، إذ ساعدت قلة العدد على توثيق عرى الروابط بين الطلبة والطالبات والأساتذة ، هذا إلى جانب الرحلات أدى إلى تكوين « الأسرة الجغرافية »

ولا تزال ظاهرة الحفظ والتقيد « ببعض » ما جاء في كتب معينة ، واضحة في بعض الكليات ، مما يجعل شبه استمرار للمدرسة الثانوية ، ويبلد الذهن ويزيد من أمية المتعلمين

والنقطة الهامة هي تأثر الجامعة بالسياسة الحزبية ، فقد فشلت الجامعة فشلا ذريعا في تحصين أبنائها وبناتها ضد عبث الأحزاب المختلفة، فأصبح من السهل على قلة من المهرجين وفئة

(١) راجع « المرأة الجديدة » بالعدد ٧٧٢ من الرسالة ، السنة ١٦ للكاتب